مدار المقاربة الأسلوبية للنص الإبداعي

1-دور الأسلوبيّـة في تحليــل الخطاب :

تتجه الأسلوبية لدراسة الخصائص اللغوية التي بها يتحول الخطاب عن سياقه الإخباري إلى وظيفته التأثيريّـة والجماليّـة ، وهو ما يؤكده رومان جاكبسون في تعريفه للأسلوبية بأنها ما يميز الكلام الفني عن بقية مستويات الخطاب أولا وعن سائر أصناف الفنون الإنسانية ثانيا.

فالأسلوبية علم وصفي تحليلي يهدف إلى دراسة مكونات الخطاب الأدبي وتحليلها، لذلك تستثمر المعارف المتصلـة بدراسة اللغـة والظواهر المختلفة في الخطاب الأدبي ، فحين تدرس ظاهرة البنية الموسيقية في الخطاب الشعري تحاول استثمار جميع الحقول المعرفية التي لها علاقة بهذا المجال كعلم العروض والقوافي والأصوات... ، وعند دراسة البنية المعجمية فإنها ترصدها بحسب حقولها الدلالية وتصنيفها وتشير إلى كثافتها وتواترها ، أما عند دراستها لظاهرة التركيب الأسلوبي للخطاب فإنها تصف خصائص التركيب مستعينة بعلم النحو ، ولا تكتفي برصد الجمل إنما تسعى إلى تحديد وظائفها ، كما تستعين بعلم البلاغة والإحصاء وتستعين بمنجزات العلوم الالكترونية كالحاسوب وجهاز راسم الذبذبات...

تقوم الأسلوبية على دراسة المتغيرات اللسانية إزاء المعيار القاعدي ، فهي عندما تتناول نصا من النصوص بالدراسة « تسعى إلى تحديد الخصائص النوعية التي خضع لها النص في تشكيله اللغوي ليصير نظاما من العلامات له سلطته على ذاتــه ولا سلطة لسواه عليــه ، فإذا صادف وتجاوز المعيار القاعدي، فإن لهذا التجاوز غاية ، على المتلقي والأسلوبي بخاصة أن يجد تفسيرا لكل انحراف أو عدول يتغيّاه النص ».

فالأسلوبية تعنى بالظواهر الفنية التي وقع فيها الانزياح لتحدد إبعادها الجمالية داخل الخطاب وأثرها في المتلقي وهو ما ذهب إليه ريفاتير ، يقول : «قد تكون مظاهر الخروج في النص المتسببة في انفعال القارئ جزءا من بنيته الأسلوبية».

لذلك تتعدد مظاهر التحليل الأسلوبي للخطاب الأدبي وعلى المحلل أن يحدد هدفه المنشود إذ يمكن « أن يطبق إجراءات عديدة ومتنوعة فيعالج نصا أدبيا مستقلا أو يتناول بالدرس إنتاج مؤلف بأكمله أو يقوم بإجراء مقارنات أسلوبية متعددة أو يدرس تغير أسلوب من حال إلى أخرى وتطوره من الوجهة الزمنية...، أو دراسة التأثيرات الأسلوبية في عملية التلقي ، ولابد في هذه الحال من التمييز بين البحث في الأدوات الأسلوبية من جانب وبين وصف أسلوب مؤلف معين من جانب آخر، ويمكن دراسته الجوانب الأسلوبية في النص بتحديد الوسائل التعبيرية المختلفة المكونة له ، مثل المفردات والتراكيب والصور والأوضاع النحوية والإيقاعية ، ليصل الدارس إلى بواعثها النفسية وأثارها الجمالية ».

تسعى الأسلوبية إلى تحقيق الموضوعية في تحليلها للخطاب الأدبي وهو ما ذهب إليه كثير من روادها، وقد ارتبطت الموضوعية بالمنهج الكمي الإحصائي عند كثير من الدارسين العرب، فهو عند سعد مصلوح من المعايير الموضوعية الأساسيّة التي يمكن باستخدامها تشخيص الأساليب وتمييز الفروق بينها ، ويكاد ينفرد من بين المعايير الموضوعية بقابليته لأن يستخدم في قياس الخصائص الأسلوبية ، وهو سبيل الباحث إلى الدقة التي توصله إلى الموضوعية عند كل من صلاح فضل ومحمد الهادي الطرابلسي و حميد لحميداني... وغيرهم.

2- المقاربة الأسلوبية للخطاب :

ما دامت الأسلوبية تسعى إلى الموضوعية في تحليل الخطاب الأدبي فقد حددت آلياتها وأدواتها الإجرائية ومبادئها المنهجية التي يجب أن يتسلح بها المحلل الأسلوبي، لكن هذا لا يعني تخليها عن التذوق الشخصي والحدس الخاص ، فعلى من يتصدى للبحث في أسلوب عمل أدبي معين أن يترك هذا العمل يمارس تأثيره الشامل العميق عليه...، فالبحث الأسلوبي ليس عملية برهنة رياضية على مقولات مسبقة ، ولكي تبدأه فأنت محتاج لشحذ كل حساسيتك وقوتك على الحدس ، دون أن تتخلى عنهما في المراحل التالية ، فالذوق لا يتنافى

مع الموضوعيّة ، على أن لا يصبح التحليل الأسلوبي عملية شخصية بحيث يصل كل باحث إلى النتائج التي تروق له دون أن نستطيع التحقق منها، مما سيجعلها حينئذ من قبيل الفن لا العلم .

يقوم المحلل الأسلوبي برصد السمات الأسلوبية التي تخلق توترا أو بروزا في النص والتي تمارس تأثيرها المباشر على ذوقه وغالبا ما يستعين بالإحصاء ، ثم يقيس متوسط الانزياحات على مستويات عدة بدءا بالمستوى الصوتي فالتركيبي فالدلالي ، وهي مستويات مشتركة بين علم اللغة وعلم الأسلوب.

يسعى المحلل الأسلوبي لإبراز الظواهر الصوتية على المستوى الصوتي ، كالنبر والتنغيم والإيقاع وأنواع الأصوات البارزة ودلالتها، وعلى المستوى التركيبي يُبيِّن التراكيب الغالبة على النص (اسمية أو فعليــة ، طويلة أو قصيرة) وفيه يأتي دور الأسلوبية النحوية في دراسة العلاقات والترابط والانسجام الداخلي في النص وتماسكه عن طريق الروابط التركيبية المختلفة ، فقد تغلب الروابط الزمنية والمكانية إذا كان سردا وتغلب الروابط الصوتية إذا كان شعرا ، مع بيان الوظيفة الأسلوبية لتلك التراكيب اللغوية التي تحمل شحنات شعورية وجوانب فنية ، أما المستوى الدلالي فيتناول فيه المحلل استخدام الألفاظ ومختلف الصيغ ودلالاتها كتصنيفها إلى حقول دلالية مع إبراز دلالة الغالب منها، ويبين ما يحدث منها انزياحا في المعنى كأن توضع في سياق مغاير فتكتسب دلالات جديدة.

فالأسلوبية تنطلق من دراسة البنيات المختلفة في النص ، وهو ما يعرف باسم الأسلوبية البنيوية ، ويحدد الأسلوب فيها بأنه انحراف واختيار، انحراف عن النموذج والمعيار ، واختيار لأن المنشِئ يقوم باختيار سمات لغويّة معينة من بين قائمة الاحتمالات المتاحة في اللغة.

تنطلق الأسلوبيَّــة من نظام اللغــة غير أنها لا تكتفي بدراسة القيم الفنيــة والجماليــة في بنياتها كما في الأسلوبية البنيوية إنما تتعدّد أهداف التحليل بتعدّد الاتجاهات الأسلوبية ، وإن كانت تنطلق كلها من دراسة اللغة .